الشام في عيون عُشاقه: ولكلٍّ وجهةٌ

إن خصائص الأرض الجغرافية والمناخية والبشرية والروحية ذات تأثير كبير في إقامة المجتمعات وبناء الحضارات، وحرص الناس على تعميرها والاستيطان فيها. وليست ديار الشام كغيرها من البلدان، فهي ذات منزلة عظيمة في قلوب العابدين، وفي قلوب الذين يزورونها متطلعين إلى زينة الحياة الدنيا؛ تحقيقاً لقول الله تعالى القديم الأزلي: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾، قال الزمخشري: ﴿ بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ يريد: بركات الدين والدنيا؛ لأنه متعبَّد الأنبياء، ومهبط الوحي، وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة، وحول المسجد الأقصى: بلاد الشام. وقال تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 71]، قال المفسرون: الأرض التي باركنا فيها للعالمين: بلاد الشام، وبركاته الواصلة إلى العالمين، وأن أكثر الأنبياء[1] بُعثوا فيه، فانتشرت في العالمين شرائعهم وآثارهم الدينيّة، وهي البركات الحقيقيّة [عن الكشاف/ سورة الأنبياء].

وقيل: بارك الله فيه بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب، وطيب عيش الغني والفقير.

وروي أن إبراهيم عليه السلام خرج من العراق إلى الشام، فقيل له: إلى أين؟ فقال: إلى بلد يملأ فيه الجراب بدرهم.

---

(1) القول بأن أكثر الأنبياء بُعثو في الشام لا يستقيم تاريخياً، إذا قصرنا القول على الأنبياء المذكورين في القرآن (25 نبياً)، فالأكثرية منهم بعثوا في غير الشام، أو في أماكن مجهولة: 1ـ محمد: في الحجاز. 2ـ موسى: في مصر. 3ـ إبراهيم: في العراق. 4ـ إسماعيل: في مكة. 5ـ يوسف: في مصر. 6ـ يونس: في العراق. 7ـ شعيب: في مدين. 8ـ صالح: في العلا. 9ـ هود: في حضرموت. 10ـ إدريس: لا يُعلم مكانه. 11ـ سليمان: ليس في مكانه نصّ صحيح. 12ـ داود: ليس في مكانه نصّ صحيح. 13ـ هارون: في مصر. 14ـ نوح: لا نعلم مكانه. 15ـ ذو الكفل: لا يُعلم مكانه. 16ـ إلياس لا يُعلم مكانه. والباقي تسعة أنبياء فقط. ولكن الثابت: أن جميع الأنبياء بُعثوا في جزيرة العرب: والقائل بالأكثرية يدخل في الإحصاء: الأنبياء الذين لم يقصّ الله علينا قصتهم، وجاء ذكرهم في كتاب يهود وهو ليس حجةً في أمور الدنيا، فكيف يكون حجة في قصص الأنبياء؟!. والله أعلم.

قلتُ: ويمكن أن تجمع بين البركتين: الدينية والدنيوية: فهما ركنان لا ينفصلان، فالدنيا تحتاج إلى دين ينظمها، والدين يحتاج إلى الدنيا ليتقوى أهل الدين على عبادة الله. ولذلك، عندما أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل في واد غير ذي زرع (مكة) دعا ربه قائلاً: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

وقال المقدسي في كتاب «أحسن التقاسيم» يصف الشام: إقليم الشام جليل الشأن، فهو ديار النبيين، ومركز الصالحين، ومطلب الفضلاء، به القبلة الأولى، وموضع الحشر[1]، والمسرى[2]، والأرض المقدسة[3]، والرباطات[4] الفاضلة، والثغور الجليلة، والجبال الشريفة، ومُهاجر إبراهيم وقبره، وديار أيوب وبئره[5].

---

(1) إشارة إلى الأحاديث النبوية التي تخبر بأن أرض الشام أرض المحشر والمنشر. وقد جاء في الحديث: «الشام أرض المحشر والمنشر» [عن «فضائل الشام ودمشق» ـ للربعي]، قال الألباني: حديث صحيح.

(2) أي: مسرى النبي ﷺ.

(3) إطلاق «الأرض المقدسة» على أرض الشام وفلسطين، ليس دقيقاً، وإنما أخذه المؤرخون من قصة موسى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾، وقد بينا في فصل سابق: أن ابن عباس قال: هي الطور وما حوله في سيناء. والأرض المقدسة عند المسلمين هي مكة والمدينة. والديار المقدسة عند النصارى: القدس والناصرة وبيت لحم في فلسطين. أما بلاد الشام، فقد وصفها القرآن بأنها مباركة: ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾. ﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾.

(4) الرباطات: مفردها: الرباط. ولعله يريد بها هنا: ملجأ الفقراء ومأوى الصوفية، والرباط أيضاً: ملازمة الثغر الذي يمكن أن يأتي منه الأعداء، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً.

(5) يقول المحققون من أهل اللغة والتاريخ: أيوب، النبي الصابر، من أنبياء العرب قبل موسى، وهو من الأدوميين العرب الذين نزلوا بين العقبة ـ على البحر الأحمر وبين نهر الحسا الذي يصب في البحر الميت ـ، وامتد ملكهم إلى بلدتي الخليل، وبيت جبرين في فلسطين. وكان موطنه في الخرائب التي تسمى: «العيص» في ظاهر الشوبك من أعمال عمّان، في شرقي الأردن، وقال الزركلي في «الأعلام»: «وسفْر أيوب» في «التوراة» عربيّ الأصل، بما فيه من أسماء الأشخاص والأماكن، ومن وصف لبادية الشام، وحيواناتها، ونباتاتها. تُرجم من العربية إلى لسان يهود بعد زمن موسى، وقد يكون أصله العربي شعراً، كما يدل عليه أسلوبه. وأدباء الغرب شديدو العناية به، واسمه =

ومحراب داود[1]، وبابه، وعجائب سليمان، ومُدُنه[2]، وتربة إسحاق وأمه[3]، ومولد المسيح ومهده، وقرية طالوت ونهره[4]، وموضع لقمان[5]، ووادي

= عندهم: «جوب» وقد لقبه فكتور هيجو: «بطريرك العرب»، وقال في كتابه عن شكسبير، وهو يتحدث عن العباقرة: إنَّ أيوب كان أديباً، وهو أول مَنْ جاء بأسلوب الفواجع، وقد ضاع شعره العربي، ولم يبق منه غير الترجمة العبرية المنسوبة إلى موسى.

وقال الأب لويس شيخو: ولنا شاهد في سفر أيوب على معرفة العرب لأسماء النجوم وحركاتها في الفلك، إذْ كان أيوب النبي العربيّ الأصل عاش غربي الجزيرة؛ حيث امتحن الله صبره.

وقال جواد علي في «تاريخ العرب قبل الإسلام»: من القائلين بأن أسفار أيوب عربية الأصل، والمتحمسين للدفاع عن هذا الرأي: المستشرق مارجليوث، وقد عالج هذا الموضوع بطريقة المقابلات اللغوية، ودراسة الأسماء الواردة في تلك الأسفار.

وأما بئر أيوب: فهو إشارة إلى قصة شفائه من المرض، فقد أوحى الله إليه أن يضرب برجله الأرض، فتفجر له منها الماء البارد، فأمره أن يشرب منه ويغتسل، فشفاه الله..

قلت: وأيوب: لم يذكر لنا القرآن أنه صاحب كتاب، وما نُسب إليه من الأسلوب الأدبي - إن صحّ - فهو من كلامه - والله أعلم.

(1) محراب داود: هو اسم فقط، وليس له واقع تاريخيّ. ذلك أن المسلمين سموا أجزاء من المسجد الأقصى، وأبوابه بأسماء بعض الأنبياء، وليس للأنبياء صلة بها: فمحراب داود، وباب داود، ومقام داود، وإسطبل سليمان كلها أسماء للتمييز فقط. وربما تأثر المسلمون بالقصص التوراتي الكاذب المتعلق بقصة الهيكل الخرافية. ونحن نؤمن بداود وسليمان نبيين، ولكننا لا نعرف مكان بعثتهما، وكلّ خبر يوصلهما بالقدس والمسجد الأقصى من أخبار التوراة الكاذبة.. وإذا كان لنا أن نعمل العقل بمكان وجودهما، فإنه يكون في اليمن. والله أعلم.

(2) وعجائب سليمان لا نعرف مكانها، ومنذ سنة 1967م حتى اليوم سنة 2006م واليهود ينقبون تحت المسجد الأقصى، فلم يجدوا ذرةً تقول إن سليمان رآها. والقول - كما في التوراة -: إنه بنى مدينة تدمر، كلام خرافي. وانظر ما قال ياقوت الحموي في ترجمتها في «معجم البلدان».

(3) وتربة إسحاق وأمه، قد تكون في فلسطين، وقد تكون في لواء الخليل، أما المغارة الموجودة تحت مسجد الخليل، فهي من رواية الأمم قبل الإسلام، وليس فيها سندٌ صحيح.

(4) قرية طالوت: يُقال: إنها قرية جبعة في ظاهر القدس. والله أعلم بالحقيقة.

(5) لقمان: قيل: هو ابن أخت أيوب، أو ابن خالته. والله أعلم.

كنعان، ومدائن لوط، وموضع الجنان، وقبر مريم وراحيل[1]، مع مشاهدَ لا تحصى، وفضائل لا تخفى، وفواكه ورخاء، وأشجار ومياه، وآخرة ودنيا، به يرقّ القلب، وتنبسط للعبادة الأعضاء.

وقال المقدسي في وصف كورة فلسطين من الشام: اجتمع بكورة فلسطين ستة وثلاثون شيئاً، ولا تجتمع في غيرها: فالسبعة الأولى لا توجد إلا بها، والسبعة الثانية غريبة في غيرها، والاثنان والعشرون لا تجتمع إلا بها، وقد يجتمع أكثرها في غيرها.

أما السبعة الأولى: فهي: قضم القريش (الصنوبر)، والسفرجل، والزبيب العينوني ـ نسبة إلى بيت عينون في جبل الخليل ـ، والدوري ـ نسبة إلى بلدة دورا الخليل ـ وانجاص الكافوري، والتين السباعي، والدمشقي.

والسبعة الثانية: القلقاس، والجميز، والخرنوب، والعنّاب، والعكوب، وقصب السكر، والتفاح الشامي.

والاثنان والعشرون الباقية: ذكر منها الأترج، والنيلة، والنبق، والجوز واللوز، والهليون، والموز، والسمّاق، والكرنب، والكمأة، والترمس، ولبن الجاموس، والعنب العاصمي، والتين الثمري، والطري[2].

وقال الشاعر أحمد بن محمد بن المدبّر في تفضيل الشام (القرن الثالث الهجري):

---

(1) راحيل: أم يوسف. والصحيح أنها ماتت في مصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، ولكن بعض المفسرين أخذ بقول التوراة التي زعمت أن راحيل ماتت وهي تلد بنيامين، ودفنت في بيت لحم. وكلام الله القرآن أولى بالتصديق.

(2) توفي المقدسي الذي كتب هذا الوصف سنة 380هـ. فإذا وجدنا وصفه يخالف الواقع بعد زمنه إلى اليوم، فقد يكون من التغيرات التي تحصل مع مرور الزمن، وقد يكون أخطأ في الإحصاء، أو بالغ في الوصف. فالمقدسي متعصب لوطنه بيت المقدس، وأكناف بيت المقدس.. وكما قيل: حبُّك الشيءَ يُعمي ويُصم.. يعني: يُعمي المحب عن عيوب حبيبه، ويضع فيه صفات تجعله متفوقاً على غيره من الأقاليم. والله أعلم.

أحــبُّ الشــام في يُسْــر وعُسْــر ... وأبغـض مـا حييتُ بـلاد مصـر[1]

وكـم بالشـام مـن شـرفٍ وفضـلٍ ... فقدسـها علـى علْـم وخُـبْرِ

بـها غُـرر القبـائل مـن معـدٍّ ... وقحطـان ومـن سـروات فِـهْر

أنـاسٌ يكرمـون الجـار حتـى ... يجـير عليـهم مـن كـلِّ وِتْـر

وقال البحتري يفضّل الشآم على العراق:

نَصـبٌ إلـى أرض العـراق وحُسْـنه ... ويمنـع عنـها قيظُـها وحرورهـا

هي الأرض نهواها إذا طاب فصلها ... ونهرب منها حين يحمى هجيرها

عشـيقتنا الأولـى وخلَّتُنـا التـي ... نحـبُّ وإن أضحـت دمشـق تغيرهـا

عُنيتُ بشـرق الأرض قِدْماً وغربها ... أجـوّب في آفاقـها وأسـيرها

فلـم أر مثـل الشـام دار إقامـة ... لـراحٍ أغاديـها وكـأسٍ أديرهـا[2]

---

(1) نحن ـ العرب المسلمين ـ لا نفضل قطراً على قُطْر، إلا كما قيل: «اللهم هذي قسمتي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما لا أملك»، ولا يصل الحدّ إلى البغض والكراهية، ويبدو أن الشاعر قال ما قال في فورة غضب، فعمم الحكم.. ونحن ننقل ما قال، ولا نعتقد بعقيدته.

(2) الشاعرُ البحتري يعده النقاد في الطبقة الأولى من شعراء العصر العباسي، وربما فضلوه على أبي تمام. وهو كذلك في الشعر فنياً، ولكن حُرم الذوق الديني أو الروحي.. فهو يفضل الشآم لأن أرضه صالحة لمجالس الخمر.. فهو يرى الحياةَ متعة فقط. وهذه ظاهرة تتكرر في شعره، ففي قصيدته الميمية التي يصف فيها الربيع، في قصيدة مدح، أساء التشبيه عندما وازن بين الربيع والخريف، وبين إحرام الحج، والحل من الإحرام فقال:

أحـلَّ فـأبدى للعيـون بشاشـةً ... وكـان قـذى للعـين إذ كـان مُحرمـا

فاستعار الحلَّ للربيع فكان جميلاً، واستعار «الإحرام» للخريف، فكان مثل القذى بالعين ـ وهذا يدل على أنه لم يتذوق جمال الإحرام في الحج.

وقال في القصيدة نفسها يحرض على شرب الخمر، وسماع الغناء، يخاطب الممدوح:

فمـا يمنـع الـراح التـي أنـت خلّـها ... ومـا يمنـع الأوتـار أن تترنمـا

وفي البيت الأخير من القطعة التي كتبتاها، يجعل زيارة الخليفة المتوكل سبباً في زيادة حسن الشام.. ولو هُدي إلى الحق، لجعل حسن أمير المؤمنين قد تضاعف لحلوله في أرض الشام الغناء.. وفي قصيدة دالية يحسن للخليفة انتقاله إلى دمشق ودارياً يقول: =

مصحـــة أبـــدان ونزهـــة أعـــينٍ ولـــهو نفـــوس دائـــم وســـرورها

مقدســـة جـــاد الربيـــع بلادهـــا ففـــي كـــل أرض روضـــة وغديرهـــا

تباشَـرَ قطراهـا وأُضعـفَ حسـنها بـــأنَّ أمـــير المؤمنـــين يزورهـــا

= العيـــش في ليـــل داريـــا إذا بـــردا والـــراح نمزجـــها بالمـــاء مـــن بـــردى

. . وفي بيت لاحق يصف الخليفة بأنه «الإمام» فيقول:

قـــل للإمـــام الـــذي عمّـــتْ فواضلـــه شـــرقاً وغربـــاً فمـــا نحصـــي لـــها عـــددا

. . فكيف يكون إماماً، أو خليفةً، ويشجعه شاعره على الانتقال إلى داريا؛ لأن الخمر يطيب إذا مُزج بماء بردى. . فحسبنا الله ونعم الوكيل.

obeikandl.com